بسم الله الرحمن الرحيم

٤٢ – سُورَة الشُّورَى

سميت بالشورى ؛ لإشعار آياتها بذلة الدنيا وعزة الآخرة ، وصفات طالبيها ، مع اجتماع قلوبهم بكل حال . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايميّ : وهي مكية . وقيل إن فيها مدنيا . ومرّ مرارا تحقيق ذلك ، وآيها ثلاث وخمسون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (عٓسٓقٓ)

« حمٓ * عٓسٓقٓ » قد روى بعض المفسرين ها هنا ، فى تفسير (حمٓ * عٓسٓقٓ) آثارا واهية جدا لا يعول عليها . بل هى ، كما قال ابن كثير منكرة ، وقد قدمنا أن الصواب أن هذه الحروف ، أوائل السور الكريمة ، أسماء لها . و (حمٓ * عٓسٓقٓ) اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما ، وعُدَّا آيتين . وقيل اسم واحد ، والفصل ليناسب سائر الحواميم ، فيكون آية واحدة . وهو الوجه عندى لاشتهارها بهما معا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » كلام مستأنف ، وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق . أو أن إيحاءها مثل إيحائها ، بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها . والكاف فى حيز النصب على أنه مفعول لـ (يُوحِيٓ) على الأول ـ وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له ، على الثانى . و(ذَٰلِكَ) على الأول إشارة إلى مافيها . وعلى الثانى إلى إيحائها . وما فيه من معنى البعد ، للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل . أى مثل ما فى هذه السورة من المعانى ، أوحى إليك فى سائر السور ، وإلى من قبلك من الرسل فى كتبهم . على أن مناط المماثلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد

إلى الحق وما فيه صلاح العباد فى المعاش والمعاد . أو مثل إيحائها ، أوحى إليك عند إيحاء سائر السور. وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم. لا إيحاء مغايرا له. كما فى قوله تعالى[1] ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ الآية . على أن مدار المثلية كونه بواسطة الملك . وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية ، للإيذان باستمرار الوحى، وأن إيحاء مثله عادته . وفى جعل مضمون السورة أو إيحائها مشبها به ، من تفخيمها مالا يخفى . وكذا فى وصفه تعالى بوصفى العزة والحكمة . وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل، مع مافيه من التشويق. وقرئ ﴿ يوحى ﴾ على البناء للمفعول ، على أن ﴿ كذلك ﴾ مبتدأ ﴿ ويوحى ﴾ خبره المسند إلى ضميره . أو مصدر و ﴿يوحى﴾ مسند إلى ﴿إليك﴾ . و ﴿الله﴾ مرتفع بما دل عليه ﴿يوحى﴾ كأنه قيل : من يوحى؟ فقيل: الله . ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ صفتان له ، أو مبتدأ ، كما فى قراءة ﴿ نوحى ﴾ . والعزيز وما بعده خبران له . أو العزيز الحكيم صفتان له . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

« لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ » خبران له . وعلى الوجوه السابقة ، استئناف مقرر لعزته وحكمته . أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ، أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[٦] ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

(١) [٤ / النساء / ١٦٣] .

« تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ » أى يتشققن لتأثرهن من تجليات عظمته، ويتلاشين من علوّ قهره وسلطنته ، يدل عليه مجيئه بعد (ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ) أو من دعائهم له ولدا ، كما فى سورة مريم « وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ » أى يسألون المغفرة لذنوب من فى الأرض من المؤمنين به « أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى شركاء وأندادا « ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ » أى رقيب على أفعالهم يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة « وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ » أى بموكل لحفظ أعمالهم . وإنما أنت منذر[1] (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ)

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ » أى أهلها ، وهى مكة « وَمَنْ حَوْلَهَا » أى من العرب وسائر الناس « وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ » أى يوم القيامة الذى تكون فيه الفضيحة أعظم ، لأنه يجمع فيه الخلائق « لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ » أى منهم فريق فى الجنة ، وهم الذين آمنوا بالله ، واتبعوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ . وفريق فى السعير ، أى النار الموقدة المسعورة على أهلها . وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ، وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

(١) [١٣ / الرعد / ٤٠] .

« وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً » أى أهل دين واحد وملة واحدة «وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ » أى ولكن لم يفعل ذلك فيجعلهم أمة واحدة ، لمنافاة ذلك مايقتضيه حكمة خلق الإنسان من تنوع أفراده المستلزم اختلاف أميالهم ومشاربهم . ولذا شاء ما اقتضاه خلقهم واستعدادهم . فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون . فأدخل من شاء فى رحمته وهم المؤمنون ، وفى عذابه ، الكافرين . قال أبو السعود : ولا ريب فى أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين ، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله « وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى والكافرون بالله مالهم من ولىّ يتولاهم يوم القيامة ، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله فينقذهم من عذابه ، لأنه يدخلهم فى قهره . وتوصيفهم بالظالمين ، إشارة إلى عدل المؤمنين فى باب الاعتقادات والأخلاق والأعمال والأفعال ، وأنه تعالى يواليهم وينصرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ، فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

[١٠] (وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

« أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى يتولونهم. مع أنه لا ولاية لهم فى الحقيقة، إذ لاقدرة ولا قوة « فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ » أى هو الذى يجب أن يتولى وحده ، ويعتقد أنه المولى والسيد دون غيره ، لتوليه سبحانه كل شىء ، وسلطانه وحكمه . والفاء جواب شرط مقدر . كأنه قيل بعد إنكار كل ولىّ سواه : إن أرادوا وليا بحق ، فالله هو الولىّ بالحق ، لا ولىّ سواه « وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » أى هو المحيي القادر ،

فكيف تستقيم ولاية غيره. وقوله «وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» تمهيد لما يأتى بعد ، من الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه ، الذى هو وصية الله تعالى لأنبيائه ، وشرعته لخلقه . وتنبيه على أن خلاف من خالف من المشركين والكافرين ، إنما مردّه إلى الله تعالى وحكمه وقضائه . وأنه لا دين إلا دينه ، ولا عبادة إلا عبادته ، ولا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه. والقصد الرد على مشركى مكة وأمثالهم ، فى تشريعهم مالم يأذن به الله ، وتحكيمهم اتباع الآباء وأفانين الأهواء. فإن السورة مكية . ومع ذلك، فتدل الآية على أن ما اختلف فيه المختلفون وتنازعوا فى شىء من الخصومات، يجب أن يكون التحاكم فيه إلى رسول الله ﷺ ، وأن لا يؤثر على حكومته حكومة غيره. كقوله تعالى[1] (فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ) وتدل أيضا على الرجوع إلى المحكم من كتاب الله ، والظاهر من سنة رسول الله ﷺ ، إذا اختلفوا فى تأويل آية واشتبه عليهم . وعلى تفويض مالم تصل إلى دركه العقول ، إلى الله تعالى، بأن يقال: الله أعلم . كما فى قوله[2] (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) وقوله «ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى» بتقدير (قل) أو هو حكاية لقوله ﷺ . أى الذى هذه الصفات صفاته ، ربّى لا آلهتكم التى تدعون من دونه ، التى لا تقدر على شىء «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» أى فى أمورى كلها «وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» أى أرجع فى المعاد ، أو من الذنوب ، أو فى الأمور المعضلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)

«فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ» أى من جنسكم «أَزْوَٰجًا»

(١) [٤ / النساء / ٥٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٨٥] .

أى نساء «وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا» أى أصنافا مختلفة ، أوذكورا وإناثا « يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ » أى يكثركم . من (الذرء) وهو البث . يقال : ذرأ الله الخلق ، بثهم كثّرهم . وفسر بـ (يخلقكم) . وضمير (فِيهِ) للبطن أو الرحم . وقال الزمخشرىّ : أى فى هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل . والضمير فى (يَذْرَؤُكُمْ) يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على الغيّب مما لا يعقل . فإن قلت : ما معنى يذرؤكم فى هذا التدبير ؟ وهلا قيل : يذرؤكم به ؟ قلت : جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير . انتهى .

وقيل (فى) مستعارة للسببية « لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » قال ابن جرير[1] : فيه وجهان : أحدهما أن يكون معناه : ليس هو كشىء . وأدخل المثل فى الكلام، توكيدا للكلام ، لكونهما بمعنى واحد . والآخر أن يكون معناه : ليس مثله شىء . وتكون الكاف هى المدخلة فى الكلام . انتهى .

وبقى ثالث وهو أن المثل بمعنى الصفة . أى ليس كصفته صفة . ورابع ـ وهو ما عول عليه المحققون ـ أن المراد من (مِثْلِهِ) ذاته . كما فى قولهم : مثلك لا يبخل ، على قصد المبالغة فى نفيه عنه . فإنه إذا نفى عمن يناسبه . كان نفيه عنه أولى . ثم سلكت هذه الطريقة فى شأن من لا مثل له سبحانه . ووجه المبالغة أن الكناية من باب دعوى الشىء ببيّنة . وقد بينت الكناية فى الآية بوجه آخر أشار إليه الشُّمُنِّىّ . وهو أنه نفى للشىء بنفى لازمه . لأن نفى اللازم يستلزم نفى الملزوم . كما يقال : ليس لأخى زيد أخ . فأخو زيد ملزوم . والأخ لازمه . لأنه لا بد لأخى زيد من أخ هو زيد . فنُفِىَ هذا اللازم . والمراد نفى ملزومه . أى ليس لزيد أخ. إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ . هو زيد . فكذا نفى أن يكون لمثل الله مثل . والمراد نفى مثله تعالى ـ إذ لو كان له مثل ، لكان هو تعالى مثل مثله ، لتحقق المماثلة من الجانبين .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فلا يصح نفى مثله (أى نفى مثل ذلك المثل) وبالجملة ، فأطلق نفى مثل المثل ، وأريد لازمه من نفى المثل. قال بعض الأفاضل: طالما كنت أجد فى نفسى من هذا شيئاً. وذلك أن محصل هذا أن نفى المثل لازم لحقيقة الآية . وقد تقرر أولا أنها تقتضى إثباته . ولذا أوّلوها بالأوجه المذكورة . فكيف يعقل أن إثبات الشىء ونفيه يلزمان معاً لشىء واحد ؟ مع تصريحهم بأن تنافى اللوازم يقتضى تنافى الملزومات . وبفرض صحة أن كلا منهما لازم لها ، فقصرها على هذا دون ذاك تحكم. مع أن القصد إبطال دلالتها على المحال . ولا يكفى فيه قولنا إنه غير مراد كما لا يخفى . ثم ظهر أن إثبات المثل ليس لازما لحقيقة الآية قطعا . بل هو محتمل فقط . كما تحتمل نفيه . وإن كان الأول أقرب ، لكن عارضه فى خصوص هذه المادة ، أنه لو كان له مثل الخ . فبطل ذلك الاحتمال من أصله . فالتعويل فى نفى المثل على هذه المقدمة القطعية بخلاف المثال، فافهم ذلك . وقال العصام : هذا ـ أى كون الآية من باب الكناية ـ وجه تلقاه الفحول بالقبول. ورجّحوه بأن الكناية أبلغ من التصريح. وعدم الزيادة أحق بالترجيح . وفيه بحث، وهو أن نفى مثل المثل لا يستلزم نفى المثل . لأن الشىء ليس مثل مثله . بل المثل المشارك للشىء فى صفةٍ ، مع كون الشىء أقوى منه فيها وبمنزلة الأصل . والمثل بمنزله الملحق به المتقارب منه . انتهى .

ورده السيلكوتىّ فقال : ما قيل إن نفى مثل المثل لا يستلزم نفى المثل لأن مثل الشىء أضعف منه ، فتوهم محض .لأن المماثلة هى الشركة فى أخص الصفات والمساواة فى جميع الوجوه مما به المماثلة . صرّح به فى (شرح العقائد النسفية) انتهى . ومثل هذه اللطائف الأدبية مما تتحلى به أجياد الأفهام . وتتشعب فى أودية بدائعه عيون محاسن الكلام .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية ردّ على المشبهة . وأنه تعالى ليس بجوهر ولا بجسم ولا عرض ولا لون ولا حالّ فى مكان ولا زمان . انتهى .

وكان حقه أن يتم الاستنباط . فكما أن صدر الآية فيه رد على المشبهة ، فكذا تتمتها وهو قوله تعالى (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) رد على المعطلة . ولذا كان أعدل المذاهب مذهب السلف . فإنهم أثبتوا النصوص بالتنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه . وذلك أن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله تعالى وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق . ثم شرعوا فى نفى تلك المفهومات ، فجمعوا بين التمثيل والتعطيل . فمثلوا أولًا وعطلوا آخراً . فهذا تشبيه وتمثيل منهم ، للمفهوم من أسمائه وصفاته تعالى ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم . فعطلوا ما يستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات اللائقة به عز وجل . بخلاف سلف الأمة وأجلاء الأئمة . فإنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصف به نبيّه ﷺ . من غير تحريف ولا تشبيه . قال تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) فرد على المشبهة بنفى المثلية . ورد على المعطلة بقوله (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) قال الحافظ ابن عبد البرّ : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة فى الكتاب والسنة ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز . إلا أنهم لم يكيّفوا شيئاً من ذلك . وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج ، فكلهم ينكرها ولا يحمل منها شيئاً على الحقيقة . ويزعمون أن من أقرّ بها مشبه ، وهم عند من أقرّ بها نافون للمعبود . انتهى .

قال الذهبىّ : صدق والله ! فإن من تأول سائر الصفات ، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام ، أدّاه ذلك السلب إلى تعطيل الرب وأن يشابه المعدوم . كما نقل عن حماد بن زيد أنه قال : مثل الجهمية كقوم قالوا : فى دارنا نخلة . قيل : لها سعف ؟ قالوا : لا . قيل لها كَرَب ؟ قالوا : لا . قيل لها رطب ؟ قالوا : لا . قيل : فلها ساق ؟ قالوا : لا . قيل : فما فى داركم نخلة . قلت : كذلك هؤلاء النفاة قالوا إلهنا الله تعالى . وهو لا فى زمان ولا فى مكان ولا يرى ولا يسمع ، ولا يبصر ولا يتكلم ، ولا يرضى ولا يريد ، ولا ولا . وقالوا : سبحان المنزه عن الصفات . بل نقول : سبحان الله العلىّ العظيم السميع البصير المريد ، الذى كلم موسى تكليما ، واتخذ إبراهيم خليلا ، ويُرى فى الآخرة ، المتصف بما وصف به نفسه ، ووصفه به

رسله ، المنزه عن سمات المخلوقين وعن جحد الجاحدين . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقال الذهبيّ رحمه الله أيضا : مقال متأخرى المتكلمين ، أن الله تعالى ليس فى السماء ولا على العرش ولا على السموات ولا فى الأرض ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا هو بائن عن خلقه ولا متصل بهم . وقالوا: جميع هذه الأشياء صفات الأجسام والله تعالى منزه عن الجسم. قال لهم أهل السنة والأثر : نحن لا نخوض فى ذلك ونقول ما ذكرناه اتباعا للمنصوص ولا نقول بقولكم . فإن هذه السلوب نعوت للمعدوم . تعالى الله جل جلاله عن العدم . بل هو موجود متميز عن خلقه ، موصوف بما وصف به نفسه ، من أنه فوق العرش بلا كيف . انتهى .

وقال الإمام ابن تيمية فى (الرسالة التدمرية) فى القاعدة الأولى: إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفى . فالإثبات كإخباره بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك . والنفى كقوله (لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) وينبغى أن يعلم أن النفى ليس فيه مدح ولا كمال ، إلا إذا تضمن إثباتا . وإلا فمجرد النفى ليس فيه مدح ولا كمال. لأن النفى المحض عدم محض . والعدم المحض ليس بشيء . وما ليس بشيء فهو كما قيل ليس بشيء، فضلا عن أن يكون مدحا أو كمالا . ولأن النفى المحض يوصف به المعدوم والممتنع . والمعدومُ والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال . فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفى متضمنا لإثبات مدح ، كقوله[1] (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) إلى قوله (وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا) ففى السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام ، فهو مبين لكمال أنه الحىّ القيوم وكذلك قوله (وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا) أى لا يكرثه ولا يثقله . وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها . بخلاف المخلوق القادر ، إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٥] .

ومشقة ، فإن هـذا نقص فى قدرته وعيب فى قوته . وكذلك قوله[1] (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ) فإن نفى العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة فى السموات والأرض. وكذلك قوله[2] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) فإن نفى مس اللغوب ، الذى هو التعب والإعياء ، دل على كمال القدرة ونهاية القوة. بخلاف المخلوق الذى يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه. وكذلك قوله[3] (لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ) إنما نفى الإدراك الذى هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء ، ولم ينف مجرد الرؤية. لأن المعدوم لا يرى، وليس فى كونه لا يرى مدح. إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحا . وإنما المدح فى كونه لا يحاط به ، وإنْ رُئِىَ . كما أنه لا يحاط به وإن علم ، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علما ، فكذلك إذا رئى لا يحاط به رؤية . فكان فى نفى الإدراك من إثبات عظمته ، ما يكون مدحا وصفة كمال . وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لا على نفيها . لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة . وهذا هو الحق الذى اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها . وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفى لا يستلزم ثبوتا، هو مما لم يصف الله به نفسه. فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب، لم يثبتوا فى الحقيقة إلها محمودا ، بل ولا موجودا. وكذلك من شاركهم فى بعض ذلك . كالذين قالوا لا يتكلم أو لا يُرى أو ليس فوق العالم أو لم يستو على العرش. ويقولون : ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مباين للعالم ولا مجانب له، إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم ، وليست هى صفة مستلزمة صفة ثبوت . ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك فى الخالق: ميّز لنا بين هذا الرب الذى نثبته وبين المعدوم. وكذلك كونه لا يتكلم أو لا ينزل ، ليس فى ذلك صفة مدح ولا كمال . بل هـذه الصفات فيها تشبيه له بالمنقوصات أو المعدومات. فهذه الصفات منها ما لا يتصف به إلا المعدوم ومنها ما لا يتصف به إلا الجمادات والناقص. فمن قال لا هو مباين للعالم ولا مداخل للعالم، فهو بمنزلة

(١) [٣٤ / سبأ / ٣] . (٢) [٥٠ / قٓ / ٣٨] . (٣) [٦ / الأنعام / ١٠٣] .

من قال لاهو قائم بنفسه ولا بغيره ولا قديم ولا محدث ولا متقدم على العالم ولا مقارن له . ومن قال إنه ليس بحيّ ولا سميع ولا بصير ولا متكلم، لزمه أن يكون ميتا أصم أعمى أبكم. فإن قال العمى عدم البصر عما من شأنه أن يقبل البصر، ومالم يقبل البصر كالحائط لا يقال له أعمى ولا بصير ، قيل له هذا اصطلاح اصطلحتموه . وإلا فما يوصف بعدم الحياة والسمع والبصر والكلام يمكن وصفه بالموت والعمى والخرس والعجمة . وأيضا فكل موجود يقبل الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها . فإن الله قادر على جعل الجماد حيا كما جعل عصا موسى حية ابتلعت الحبال والعصيّ . وأيضا فالذى لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصا مما يقبل الاتصاف بها مع اتصافه بنقائضها. فالجماد الذى لا يوصف بالبصر ولا العمى ولا الكلام ولا الخرس ، أعظم نقصا من الحى الأعمى الأخرس . فإن قيل إن البارئ لا يمكن اتصافه بذلك ، كان فى ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالخرس والعمى والصمم ونحو ذلك . مع أنه إذا جعل غير قابل لها كان تشبيها له بالجماد الذى لا يقبل الاتصاف بواحد منها . وهذا تشبيه بالجمادات لا بالحيوانات . فكيف من قال ذلك على غيره مما يزعم أنه تشبيه بالحى . وأيضا فنفس نفى هذه الصفات نقص ، كما أن إثباتها كمال . فالحياة من حيث هى هى ، مع قطع النظر عن تعيين الموصوف بها ، صفة كمال . وكذلك العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والعقل ونحو ذلك . وما كان صفة كمال فهو سبحانه أحق أن يتصف به من المخلوقات . فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق به ، لكان المخلوق أكمل منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

[١٣] (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ، أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ)

« لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى مفاتيح الأرزاق وخزائن الملك والملكوت « يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويغنيه ، ويقتر على آخرين « إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ » اعلم أنه تعالى لما عظّم وحيه إلى النبىّ ﷺ بقوله[1] (كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) ذكر فى هذه الآية تفصيل ذلك ، وهو ما شرعه له ولهم من الاتفاق على عبادته وحده لا شريك له كما قال[2] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) وفى الحديث[3]: نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد . يعنى : عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم. كقوله تعالى[4] (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا). وتخصيص هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم عليهم السلام ، بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة . ولاستمالة قلوب الكفرة ، لاتفاق الكل على نبوّة بعضهم. وابتدأ بنوح عليه السلام لأنه أول الرسل. والمعنى : شرع لكم من الدين

(١) [٤٢ / الشورى / ٣] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٤٨ ـ باب واذكر فى الكتاب مريم، حديث رقم ١٦١٧ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٤٥ (طبعتنا) .

(٤) [٥ / المائدة / ٤٨] .

ما وصى به جميع الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى زمن نبينا عليه الصلاة والسلام . والتعبير بالتوصية فيهم والوحى له ، للإشارة إلى أن شريعته ﷺ هى الشريعة الكاملة . ولذا عبر فيه بـ (الَّذِى) التى هى أصل الموصولات . وإضافه إليه بضمير العظمة، تخصيصاً له ولشريعته بالتشريف وعظم الشأن وكمال الاعتناء . وهو السر فى تقديمه على مابعده مع تقدمه عليه زمانا « كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ » أى من إخلاص العبادة لله وإفراده بالألوهية والبراءة مما سواه من الأوثان « ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ » وهو من صرف اختياره إلى ما دعى إليه « وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ » أى يوفق للعمل بطاعته واتباع رسله من يقبل إلى طاعته ويتوب من معاصيه . ثم أشار إلى حال أهل الكتاب ، إثر بيان حال المشركين ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

« وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ » أى فى دينهم وصاروا شيعاً « إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ » أى الدلائل الصحيحة والبراهين اليقينية على حقية ما لديهم « بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ » أى ظلما وتعديا وطلباً للرئاسة « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو تأخير العذاب إلى يوم القيامة « لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم ، لاستيجاب جناياتهم لذلك « وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ » وهم أهل مكة الذين مَنّ الله عليهم بالكتاب العزيز « لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ » أى موقع لأتباعهم فى الشك ، لكثرة ما يبثونه من الوساوس الصادّة عن سبيل الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ، وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ)

« فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ » أى فلأجل ما ذكر من التفرق والشك المريب ، فادع الناس كافة إلى إقامة الدين لمقاومة الباطل ودحره ، وهتك وساوسه « وَاسْتَقِمْ » أى على الدعوة إليه والصدع به « كَمَآ أُمِرْتَ » أى أوحى إليك « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ » أى : أىّ كتاب كان ، لا كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وفيه تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين ، وتعريض بهم . أفاده أبو السعود « وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ » أى لأسوّى بينكم فى دعوة واحدة كما قال تعالى[1] (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا) الآية. ثم أشار إلى أن ما وراء الأمر المذكور والتبليغ به من الحساب ، فهو إليه تعالى . فقال « ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ » أى لا خصومة ولا محاجة بعد هذا. لأن الحق قد ظهر. ولم يبق للمحاجة حاجة ، ولا للمخالفة محل سوى المكابرة. والحجة فى الأصل مصدر بمعنى الاحتجاج. كما ذكره الراغب . وتكون بمعنى الدليل . والمراد هو الأول دون الثانى . وهو ظاهر « ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا » أى يوم القيامة ، فيقضى بالحق فيما اختلفنا فيه « وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ » أى المعاد والمرجع للجزاء .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

تنبيهان :

الأول ـ تفسير العدل بما ذكرناه، لأنه الذى يقتضيه سياق الكلام لاسيما والسورة مكية. ولم يكن مظهره صلوات الله عليه بها فصل الخصومات والقضاء فى الحكومات. نعم من ذهب إلى ذلك فإنما وقف مع عمومها . ومنه قول قتادة : أُمِر النبىّ ﷺ أن يعدل حتى مات . والعدل ميزان الله فى الأرض . به يأخذ للمظلوم من الظالم. وللضعيف من الشديد . وبالعدل يصدق الله الصادق ويكذب الكاذب . وبالعدل يرد المعتدى ويوبخه .

الثانى ـ قال ابن كثير: اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات. كل منها منفصلة عن التى قبلها. حكم برأسها . قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسىّ. فإنها أيضا عشرة فصول كهذه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

« وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ » أى يخاصمون فى دينه الذى ابتعث به خاتم أنبيائه ، وهم الذين أورثوا الكتاب، المذكورون قبل ، ليصدوا عن الهدى طمعاً فى عود الجاهية «مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ » أى استجاب له الناس. أى بالاستسلام والانقياد لدينه حسبما قادهم إليه العقل السليم والنظر الصحيح وسيرة الداعى وهديه وحسن دعوته وتصديق الكتب المنزلة له وسلامة الفطرة « حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ » أى زائلة لأنها فى باطل . والباطل لا بقاء له مع قوة الحق « عِندَ رَبِّهِمْ » أى فى حكمه وقضائه وتقديره. قال أبو السعود: وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجاراة معهم على زعمهم الباطل « وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ » أى عظيم، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره « وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ » أى متلبساً به فى أحكامه وأخباره « وَٱلْمِيزَانَ » أى وأنزل الميزان وهو العدل الذى يوزن به الحقوق ويسوّى به الخلاف « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ » قال أبو السعود : أى شىء قريب . أو قريب مجيئها . أو الساعة بمعنى البعث . والمعنى أنها على جناح الإتيان . فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ، أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ)

« يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا » أى خائفون منها . قال ابن جرير[1] : لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم فيها « وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ » أى المتحقق وجوده لا محالة « أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلم بَعِيدٍ » أى لإنكارهم عدل الله وحكمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ)

[٢٠] (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ، وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ)

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

«ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ» أي يلطف بهم في تدبير إيصال ما يفتقرون من خير الدين والدنيا «يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ * مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ». قال الزمخشريّ : سمى مايعمله العامل مما يبتغي به الفائدة والزكاء ، حرثاً على المجاز ـ أي بتشبيهه بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا . ولذلك قيل (الدنيا مزرعة الآخرة) وفرق بين عملي العاملين بأن من عمل للآخرة ، وفّق في عمله وضوعفت حسناته . ومن كان عمله للدنيا أعطي شيئاً منها ، لا ما يريده ويبتغيه ، وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه ، وما له نصيب قط في الآخرة. ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له، واصلٌ إليه لا محالة ـ للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب . انتهى .

وهذه الآية كآية[1] (مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ) الخ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ، وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٢] (تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْ ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ، لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ)

[٢٣] (ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ، قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ، وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)

(١) [١٧ / الإسراء / ١٨] .

«أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّـهُ» (أَمْ) منقطعة، فيها معنى (بل والهمزة) ولابد من سبق كلام ، خبراً أو إنشاء ، يضرب عنه ويقرر مابعده . وما سبق قوله[1] (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا) الخ فهو معطوف عليه ، وما بينهما من تتمة الأول . والمراد بشركائهم ، إما شياطينهم لأنهم شاركوهم فى الكفر وحملوهم عليه . وإما أوثانهم . وإضافتها إليهم لأنهم متخذوها شركاء وإن لم تكن كذلك فى الحقيقة . وعلى الثانى ، فإسناد الشرع إليها ، لأنها سبب ضلالهم وافتتانهم بما تدينوا به . أو لأنها على صورة المشرّع الذى سنّ هذا الضلال لهم . ويجوز كون الاستفهام المقدّر حينئذ للإنكار . أى ليس لهم شرع ولا شارع . كما فى قوله[2] (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا) « وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ » أى القضاء السابق بأن الجزاء فى القيامة لا فى الدنيا . أو لولا ما وعدهم الله به من أنه يفصل بينهم ويبيّن فى الآخرة. فالفصل بمعنى البيان « لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ » أى لفرغ من الحكم بين الكافرين والمؤمنين ، بتعجيل العذاب للكافرين «وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى يوم البعث « مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ » أى من السيئات « وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ » أى نازل بهم لامحالة «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ * ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّـهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى لاأسألكم على دعايتكم إلى ماأدعوكم إليه من الحق الذى جئتكم به، والنصيحة التى أنصحكم ، ثوابا وجزاء وعوضا من أموالكم تعطونيه « إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ » أى أن تودونى فى القرابة التى بينى وبينكم ، وتصلوا الرحم التى بيننا. ولا يكن غيركم، يامعشر قريش، أولى بحفظى ونصرتى ومودتى منكم .

قال الشهاب : المودة مصدر مقدر بـ (أن والفعل) . والقربى مصدر كالقرابة. و (فى)

---

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

للسببية . وهى بمعنى اللام لتقارب السبب والعلة . والخطاب ، إما لقريش أو لجميع العرب ، لأنهم أقرباء فى الجملة . انتهى. والاستثناء منقطع. ومعناه نفى الأجر أصلا. لأن ثمرة مودتهم عائدة إليهم ، لكونها سبب نجاتهم . فلا تصلح أن تكون أجراً له . وقيل : المعنى أن تودوا قرابتى الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم . وقيل (ٱلْقُرْبَىٰ) التقرّب إلى الله تعالى . أى إلا أن تتوددوا إلى الله فيما يقربكم إليه . والمعنى الأول هو الذى عوّل عليه الأئمة . ولم يرتض ابن عباس رضى الله عنه ، غيره. فى البخارىّ[1] عنه ، رضى الله عنه ؛ أنه سئل عن قوله تعالى (إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) فقال سعيد بن جبير : القربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت. إن النبىّ ﷺ ، لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .

قال ابن كثير : انفرد به البخارىّ ـ أى عن مسلم ـ ورواه الإمام أحمد . وهكذا روى الشعبىّ والضحاك وعلىّ بن أبى طلحة والعوفىّ ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس، رضى الله عنهما ، مثله . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسّدّىّ وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم . وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانىّ عن ابن عباس قال : قال لهم رسول الله ﷺ : لاأسألكم عليه أجراً إلا أن تودونى فى نفسى ، لقرابتى منكم ، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم. وروى الإمام أحمد[2] عن ابن عباس أن النبىّ ﷺ قال: لاأسألكم على ماأتيتكم به من البينات والهدى أجرا ، إلا أن تودّوا الله تعالى، وأن تقرّبوا إليه بطاعته. وهكذا روى عن قتادة والحسن البصرىّ مثله . وأما رواية أنها نزلت بالمدينة فيمن فاخر

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤٢ ـ سورة الشورى ، ١٠ ـ باب قوله إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ، حديث رقم ١٦٤٣ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٦٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .
والحديث رقم ٢٤١٥ (طبعة المعارف) .

العباس من الأنصار ، فإسناده ضعيف. على أن السورة مكية . وليس يظهر بين الآية وتلك الرواية فى هذا السياق مناسبة . وكذا ما رواه ابن أبى حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ! من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال : فاطمة وولدها رضى الله عنهم ، فإن فى إسناده مبهمالا يعرف، عن شيخ شيعىّ، وهو حسين الأشقر، فلا يقبل خبره فى هذا المحل وذكر نزول الآية فى المدينة بعيد . فإنها مكية. ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضى الله عنها أولاد بالكلية . فإنها لم تتزوج بعلىّ رضى الله عنه إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة . والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، كما رواه عنه البخارىّ . ولا نفكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم . فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرا وحسبا ونسبا . ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية . كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه وعلىّ وأهل بيته وذريته رضى الله عنهم أجمعين وقد ثبت فى الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته: إنى تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتى. وإنهما لم يفترقا حتى يردا علىّ الحوض . وروى الإمام أحمد[2] عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله ! إن قريشاً إذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن. وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها . قال فغضب النبىّ ﷺ غضبا شديدا وقال: والذى نفسى بيده! لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله . هذا ملخّص ما أورده ابن كثير رحمه الله تعالى ، وسبقه فى الإيساع فى ذلك تقىّ الدين ابن تيمية فى (منهاج السنة) من أوجه عديدة . قال فى الوجه الثالث : إن هذه الآية فى سورة الشورى. وهى مكية باتفاق أهل السنة.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) . والحديث رقم ١٧٧٢ (طبعة المعارف) .

بل جميع آل حم مكيات . وكذلك آل طس . ومن المعلوم أن عليًّا إنما تزوج فاطمة بالمدينة بعد غزوة بدر . والحسن ولد فى السنة الثالثة من الهجرة . والحسين فى السنة الرابعة فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وجود الحسن والحسين بسنين متعددة . فكيف يفسر النبيّ ﷺ الآية بوجوب مودة قرابة لا تعرف ولم تخلق .

ثم قال: الوجه الرابع ـ إن تفسير الآية الذى فى الصحيحين عن ابن عباس يناقض ذلك. فهذا ابن عباس ترجمان القرآن وأعلم أهل البيت ، بعد علىّ ، يقول : ليس معناها مودة ذوى القربى. ولكن معناها لا أسألكم يامعشر العرب ويا معشر قريش عليه أجرا. لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التى بينى وبينكم. فهو سأل الناس الذين أرسل إليهم أوّلًا ، أن يصلوا رحمه فلا يعتدوا عليه حتى يبلّغ رسالة ربه. الوجه الخامس ـ أنه قال : (لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) لم يقل إلا المودة للقربى ولا المودة لذوى القربى. فلو أراد المودة لذوى القربى لقال المودة لذوى القربى كما قال[1] (وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ) وقال[2] (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ) وكذلك قوله[3] (وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ) وقوله[4] (وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ)وهكذا فى غير موضع. فجميع ما فى القرآن من التوصية بحقوق ذوى قربى النبيّ ﷺ ، وذوى قربى الإنسان ، إنما قيل فيها (ذوى القربى) . لم يقل (فى القربى). فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم، دل على أنه لم يرد (ذوى القربى) .الوجه السادس ـ أنه لو أريد المودة لهم لقال : المودّة لذوى القربى، ولم يقل فى القربى .فإنه لا يقول من طلب المودة لغيره: أسألك المودة فى فلان، ولا فى قربى فلان. ولكن أسألك المودة لفلان، والمحبة لفلان . فلما قال المودة فى القربى، علم أنه ليس المراد لذوى القربى.

---

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] . (٢) [٥٩ [الحشر / ٧] .
(٣) [١٧ / الإسراء / ٢٦] . (٤) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

الوجه السابع ـ أن يقال إن النبيّ ﷺ لا يسأل على تبليغ رسالة ربه أجرا البتة . بل أجره على الله كما قال[١] (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ) وقوله[٢] (أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ) وقوله[٣] (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ) ولكن الاستثناء هنا منقطع ، كما قال[٤] (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا) ولا ريب أن محبة أهل بيت النبي ﷺ واجبة. لكن لم يثبت وجوبها بهذه الآية ، ولا محبتهم أجر للنبيّ ﷺ . بل هو مما أمرنا الله به كما أمرنا بسائر العبادات . وفى الصحيح[٥] عنه أنه خطب أصحابه بغدير يدعى (خما) بين مكة والمدينة فقال (أذكركم الله فى أهل بيتى) وفى السنن[٦] عنه أنه قال (والذى نفسى بيده ! لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتى) فمن جعل محبة أهل بيته أجرا له يوفيه إياه ، فقد أخطأ خطأً عظيما . ولو كان أجرا له لم نُثَبْ عليه نحن ، لأنا أعطيناه أجره الذى يستحقه بالرسالة . فهل يقول مسلم مثل هذا ؟؟؟

الوجه الثامن ـ إن (القربى) معرفة باللام. فلابد أن يكون معروفا عند المخاطبين الذين أمر أن يقول لهم (لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) وقد ذكر أنها لما نزلت، لم يكن قد خلق الحسن والحسين ، ولا تزوج علىّ بفاطمة . فالقربى التى كان المخاطبون يعرفونها ، يمتنع أن تكون هذه . بخلاف القربى التى بينه وبينهم ، فإنها معروفة عندهم ، كما تقول (لا أسألك إلا المودة فى الرحم التى بيننا) وكما تقول (لا أسألك إلا العدل بيننا وبينكم) (ولا أسألك إلا أن

(١) [٣٨ / ص / ٨٦] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٠] و [٦٨ / القلم / ٤٦] .
(٣) [٣٤ / سبأ / ٤٧] . (٤) [٢٥ / الفرقان / ٥٧] .
(٥) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٠٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ). والحديث رقم ١٧٧٧ (طبعة المعارف) .

تتق الله فى هذا الأمر) . انتهى « وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً » أى يكتسب طاعة « نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً » أى بمضاعفته « إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ » أى لمن تاب وأناب « شَكُورٌ » لسعيهم بتضعيف جزاء حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ، فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)

« أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً » أى بدعوى النبوة والوحى « فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ » قال ابن كثير : أى : لو افتريت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ، يختم على قلبك. أى : يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن. كقوله[1] جل جلاله (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ *لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ *فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ) أى لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه. انتهى .

وهذا تفسير بالأشباه والنظائر من الآيات، يؤثره كثير من الأئمة، ما وجد إليه سبيلا. فإن التنزيل يفسّر بعضه بعضا. ومآل الآية على هذا المعنى، كما أوضحه أبو السعود، هو الاستشهاد على بطلان ماقالوا، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى، لمنعه من ذلك قطعا، فختم على قلبه بحيث لم يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرف من حروفه. وحيث لم يكن الأمر كذلك ، بل تواتر الوحى حينا فحينا ، تبين أنه من عند الله تعالى .

وقال الزمخشرىّ: فإن يشإ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم، حتى تفترى عليه الكذب. فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله ، إلا من كان فى مثل حالهم . وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وإنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى الجملة المختوم على

(١) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ـ٤٧] .

قلوبهم . ومثل هذا أن يخوّن بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلنى . لعل الله أعمى قلبى . وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب . وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه رُكِب من تخوينه أمرٌ عظيم . انتهى .

قال الشهاب : فمعناه : إن يشأ الله يختم على قلبك كما فعل بهم . فهو تسلية له صلوات الله عليه ، وتذكير لإحسانه إليه وإكرامه ، ليشكر ربه ويترحم على من ختم على قلبه ، فاستحق غضب ربه ، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر . ولذا أتى (بأن) فى موضع (لو) إرخاء للعنان ، وتلميحا للبرهان. على أنه لا يتصور وصفه بما ذكروه . فالتفريع بالنظر للمعنى المكنىّ عنه . وحاصله أنهم اجترؤوا على هذا المحال، لأنهم مطبوعون على الضلال. انتهى «وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ» استئناف مقرر لنفى الافتراء عما يقوله عليه الصلاة والسلام ، بأنه لو كان مفترى لمحقه . إذ من سنته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه . فليس (يمح) مجزوما بالعطف على الجزاء ، بل معطوف على مجموع الجملة والكلام السابق . ولذا أعيد لفظ الجلالة ورفع (يحق) . قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ ، بأنه يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والتكذيب ، ويثبت الحق الذى أنت عليه بالقرآن ، وبقضائه الذى لا مردّ له من نصرتك عليهم . إن الله عليم بما فى صدرك وصدورهم ، فيجرى الأمر على حسب ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

«وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ » أى يقبل رجوعه إذا راجع توحيد الله وطاعته، من بعد كفره « وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ » أى معاصيه التى تاب منها «وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» أى من خير أو شر ، وهو مجازيكم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ، وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

[٢٧] (وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ، إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ)

« وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ » أى يستجيب لهم . فحذف اللام كما حذف فى قوله تعالى[1] (وَإِذَا كَالُوهُمْ) أى يثيبهم على طاعتهم « وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ » أى على ثوابهم ، منةً منه وطَوْلًا « وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى تجاوزوا الحدّ الذى حدّه لهم إلى غيره ، بركوبهم ما حظره عليهم . لأن الغنى مَبْطَرَة مَأْشَرَة[2] (كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ) « وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ » أى ولكن ينزل من رزقه ما يشاؤه بقدرٍ ، لكفايتهم « إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ » قال الزمخشرىّ : أى يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ، فيقدّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم ، فيُفقر ويُغنى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط ، كما توجبه الحكمة الربانية . ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ، وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ)

« وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ » أى بركات الغيث

(١) [٨٣ / المطففين / ٣] . (٢) [٩٦ / العلق / ٦و٧] .

ومنافعه وآثاره من الخصب والرخاء «وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ» أى الذى يتولى الخلق بإحسانه ، والمحمود على أياديه عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ)

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ » أى حشرهم يوم القيامة « إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ » أى متمكن منه ، لا يتعذر عليه وإن تفرقت أوصالهم .

تنبيه :

ذهب بعض الباحثين فى آيات القرآن الفلكية والعوالم العلوية إلى معنى آخر فى هذه الآية . وعبارته : يفهم من هذه الآية أن الله تعالى خلق فى السموات دواب ، ويستدل من قوله تعالى[1] (وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ) أن هذه الدواب ليست ملائكة كما قال المفسرون ، بل حيوانات كحيوانات الأرض . ولا يبعد أن يكون بينهم حيوان عاقل كالإنسان ، ويلزم لحياة تلك الحيوانات أن يكون فى السموات نباتات وأشجار وبحار وأنهار كما تحقق فى هذا العصر لدى علماء الرصد .

ثم قال : لعمرى ، إن هذه الآية التى نزلت على محمد ﷺ قبل ألف وثلاثمائة وعشرين سنة ، لآية لأهل هذا العصر وأيّة آية ، آية لأهل العلم والفلسفة الذين يبذلون الأموال والأرواح بلا حدّ ولا حساب ، ليتوصلوا إلى معرفة سر من أسرار الكائنات . ومع هذا الجدّ العنيف والجهد المتواصل منذ ثلاثمائة سنة ، لم يتوصلوا إلا بالظن إلى ما أنبأت به هذه الآية .

(١) [٢٤ / النور / ٤٥] .

وجل ما توصلوا إليه بالبرهان العقلي ، إن الأرض أصغر من الشمس وأنها تدور حولها . وإن الكواكب السيارات كريّات . وأن النجوم الثوابت شموس، ولها سيارات تدور حولها. ولما ثبت لديهم جميعا وجود الماء والهواء، وحصول الصيف والشتاء فى هذه السيارات ، ظنوا أنه يوجد فيها عالم كعالم الأرض . وبدأ البعض منهم يفكرون بإيجاد الوسائل للمخابرة بالكهربائية مع سكان المريخ الذى هو أقرب السيارات إلينا . وليس ذلك بالمستحيل فنًّا . ويستدل على إمكانيته من آخر الآية نفسها وهو قوله تعالى (وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ) فلا يبعد أن يتخابرا ويجتمعا فكرا ، إذا لم يجتمعا جسما . فلينظر الفلكيون إلى ما حوته هذه الآية المكنوزة فى القرآن . وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية ، الضاربون صفحا عن العلوم الإسلامية ، ما فى كتاب الله من الحكمة والبيان .

وقال أيضا : لا يخفى أن القرآن العظيم نزل لبيان الحق وتعليم الدين، أولا وبالذات . لكن، تمهيدا لهذه السبيل، أتى بشذرات من العلوم الفلكية والطبيعية ، وصرف بصائر الناس إلى التفكر فى خلق السموات والأرض ، وما هن عليه من الإبداع . فوجه أبصارهم إلى التأمّل فى خلق الإنسان وما هو عليه من التركيب العجيب ، إلى غير ذلك من الأمور الفلكية والطبيعية فى أكثر من ثلاثمائة آية. فالمفسرون رحمهم الله ، لما فسروا هذه الآيات، شرحوا معانيها على مقدار محيط علمهم بالعلوم الفلكية والطبيعية . ولا يخفى ما كانت عليه هذه الآلات فى زمنهم من النقصان . لا سيما علم الفلك . فهم معذرون إذا لم يفهموا معانى هذه الآيات التى تحيّر عقول فلاسفة هذا العصر ، المتضلعين بالعلوم العقلية. لذلك لم يفسروا هذه الآيات حق تفسيرها ، بل أوّلوها وصرفوا معانيها عن الحقيقة إلى المجاز أو الكناية . انتهى كلامه.

وقال عالم فلكيّ أيضا : يقول العلماء إنه من المحقق أن هذه السيارات مسكونة بحيوانات تشبه الحيوانات التى على أرضنا هذه ، ويكون كل كوكب منها أرضا بالنسبة لحيواناته. وباقى الكواكب سماوات بالنسبة لها .

قال : والظاهر أن القول بوجود الحيوانات فى هذه الكواكب صحيح . لأن الله تعالى يقول فى كتابه[١] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ) ويقول[٢] (يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ)

« وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » أى فبسبب معاصيكم وما اجترمتم من الآثام . « وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ » أى من الذنوب فلا يعاقب عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بمعجزين ربكم إن أراد عقوبتكم ، لأنكم فى قبضة تصرّفه « وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى إذا أراد عذابكم . فاتقوه واخشوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ)

[٣٣] (إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ » أى السفن الجارية « فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ » أى الجبال

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٩] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٩] .

« إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ » أى فيبقين ثوابت على ظهر البحر « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى فى جرى هذه الجوارى فى البحر ، بتسخير الله تعالى الريح لجريها « لَأَيَٰتٍ » أى لعبرة وعظة وحجة بيّنة على القدرة الأزلية « لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى لكل مؤمن . وإنما آثر وصفيه المذكورين ، تذكيراً بما ينبغى أن يكون المؤمن عليه من وفرة الصبر وكثرة الشكر . إذ لا يكمل الإيمان بدونهما (والإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ)

[٣٥] (وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ)

« أَوْ يُوبِقْهُنَّ » أى أو يهلكهن بالغرق « بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ » وقوله تعالى « وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ » عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم (وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ) أى يخاصمون الرسول فى آياته على توحيده أنهم ما لهم من محيد عن عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٣٧] (وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ)

[٣٨] (وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ)

«فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ» أى مما زين للناس حبه من الشهوات «فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا» أى فهو متاع لكم ، تتمتعون به فى الدنيا . وليس من الآخرة «وَمَا عِندَ ٱللَّهِ» أى من ثوابه الأخروىّ «خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ» وذلك لخلوصه عن الشوائب ودوامه «لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» أى فى أمورهم وقيامهم بأسبابهم «وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ» أى يصفحون عمن أساء إليهم «وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ» أى حينما دعاهم إلى توحيده، والبراءة من عبادة غيره «وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ» أى لا ينفردون برأى حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه . وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم، وصدق تآخيهم فى إيمانهم وتحابهم فى الله تعالى «وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ» أى فيؤدون ما فرض عليهم من الحقوق لأهلها ، من زكاة ونفقة . وما ندبوا إليه من مواساة وصدقة ومعونة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ)

«وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ» أى بالعدالة. احترازاً عن الذلة والانظلام، لكونهم فى مقام الاستقامة ، قائمين بالحق والعدل الذى ظلّه فى نفوسهم . قاله القاشانىّ . وقال ابن جرير[1] : اختلف أهل التأويل فى الباغى الذى حمد تعالى ذكره ، المنتصر منه بعد بغيه عليه . فقال بعضهم : هو المشرك إذا بغى على المسلم . وقال آخرون: بل هو كل باغ بغى فحمد المنتصر منه . وإليه ذهب السّدّىّ حيث قال : ينتصرون ممن بغى عليهم من غير أن يعتدوا .

قال ابن جرير : وهذا القول الثانى أولى فى ذلك بالصواب. لأن الله لم يخصص من ذلك معنى دون معنى . بل حمد كل منتصر بحقٍّ ممن بغى عليه . فإن قال قائل : وما فى الانتصار

(١) انظر الصفحة رقم ٢٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

من المدح ؟ قيل : إن فى إقامة الظالم على سبيل الحق ، وعقوبته بما هو له أهل ، تقويما له . وفى ذلك أعظم المدح . انتهى . وكذا قال الزمخشرىّ . فإن قلت : أهم محمودون على الانتصار؟ قلت : نعم . لأن من أخذ حقه غير متعد حد الله وما أمر به فلم يسرف فى القتل ، إن كان ولىّ دم ، أو ردّ على سفيه محاماة على عرضه وردعاً له ، فهو مطيع . وكل مطيع محمود . قال النخعىّ : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفسّاق. ثم أشار تعالى إلى أن الانتصار يجب أن يكون مقيدا بالمثل ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ، إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ)

[٤١] (وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ)

[٤٢] (إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا» أى وجزاء سيئة المسىء ما ماثلها. إذ النقصان حيف والزيادة ظلم . ثم بيّن تعالى أن العفو أوْلَى، فقال « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ » أى بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء « فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ » أى ثوابه عليه . وفى إبهامه ، ما يدل على عظمه . حيث جعل حقا على العظيم الكريم «إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ» أى البادئين بالسيئة والمعتدين فى الانتقام « وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ » أى بعد ماظلم . فالمصدر مضاف لمفعوله ، أوهو مصدر المبنىّ للمفعول « فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ » أى للمعاقب، ولا للعاتب والعائب. لأنهم انتصروا منهم بحق . ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له عليه، ولم يتعد ولم يظلم، فكيف يكون عليه سبيل؟ « إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ» أى يبدءوهم بالظلم والإضرار،

أو يعتدون فى الانتقام « وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » أى يتكبرون فيها ويفسدون « أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : بسبب ظلمهم وبغيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ)

«وَلَمَن صَبَرَ» أى على الأذى « وَغَفَرَ » أى لمن ظلمه ولم ينتصر « إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » أى التى ندب الله عباده ، وعزم عليهم العمل بها .

تنبيه :

نقل السيوطىّ فى (الإكليل) عن الكيا الهراسىّ أنه قال : قد ندب الله إلى العفو فى مواضع من كتابه ، وظاهر هذه الآية (وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ » أن الانتصار أفضل . قال ، وهو محمول على من تعدى وأصرّ ، لئلا يتجرأ الفساق على أهل الدين . وآيات العفو فيمن ندم وأقلع . انتهى . وعجيب فهمه الأفضلية من الآية ، فإنها لا تدل عليه ، عبارة ولا إشارة . فإنه تعالى لم يرغب فى الانتصار . وإنما بين أنه مشروع لهم إذا شاءوا . ثم بين بعده أن مشروعيته بشرط رعاية المماثلة . ثم بين أن العفو أولى ، وهو الذى انتهى إليه الكلام ، ، وتم به السياق . وكذلك لا حاجة إلى حمل الانتصار على من تعدى . وذلك لأن الانتصار بالمثل من فروع علم العقوبات والجزاء المشروعة لإقامة الحق والعدل ، ودفع الظلم عن النفس والصغار ، ورفع الأحقاد والأضغان . وأما العفو والصفح ، فذاك من فروع علم الأخلاق وتهذيب النفوس . لأنه من باب المسامحة بالحق وإسقاط المستحق ، رغبة فى تزكية النفس وهضما لها وحرصا على خير الأمرين وأوفر الأجرين . وكلاهما من محاسن الشريعة الحنيفية ، وتوسطها بين الاقتصاص البتة والعفو كليًّا ؛ لأن العقل السليم يرى فيهما إفراطا وتفريطا . والدين دين الفطرة . وهى تتقاضى القصاص بالمثل ، وتراه حقا لها بجبلّتها والقضاء الأدبىّ والوازع الرحمانىّ يرشدها إلى ما هو أمثل إن شاءت ، ويبرهن لها أمثليته ،

مما لا يبعد ، إذا راجعت نفسها وثابت إلى رشدها ، أن تؤثره ولا تؤثر عليه . كيف ؟ وقد دل قوله تعالى (إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ) كما قال الزمخشرىّ ، على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء ، خصوصا فى حال الحرد والتهاب الحمية . فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ، وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ)

« وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ » أى : ومن خذله عن الرشاد ، فليس له من ولىّ يليه ، فيهديه لسبيل الصواب ، ويسدده من بعد إضلال الله إياه « وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ » أى رجعة إلى الدنيا . وذلك استعتاب منهم فى غير وقته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ، وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ)

[٤٦] (وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ)

[٤٧] (ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ، مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ)

« وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » أى النار « خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ » أى من طرف قد خفى من ذله وصغاره «وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أى بالتعريض للعذاب المخلد، وتفويت النعيم المؤبد «أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ *وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ * ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم » أى أجيبوا أيها الناس داعى الله وآمنوا به « مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ » أى لا يرده الله بعد ما حكم به . فـ « من » صلة (مَرَدَّ) أو هى صلة (يَأْتِيَ) أى من قبل أن يأتى يوم من الله لا يمكن ردّه « مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ » أى إنكار لما اقترفتموه، لأنه محصىّ عليكم . أو نكير ينكر على الله فى مؤاخذتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ، وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ)

« فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » أى رقيباً تحفظ عليهم أعمالهم وتحصيها « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ » أى إبلاغهم ما أرسلت به ، فإذا فعلت فقد قضيت ما عليك « وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ » أى جحودٌ نعمَ ربه ، فلا يذكر إلا البؤس والبلاء ، ولا يتفكر إلا فيما أنزله به من الفساد والشقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ، يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ)

[٥٠] (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا، وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا، إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

« لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ » أى إنه تعالى يجعل أحوال العباد فى الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة . وتقديمُ الإناث ، إما لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لتطييب قلوب آبائهن، تنبيهاً بأنهن سبب لتكثير مخلوقاته، فلا يجوز الحزن من ولادتهن وكراهتهن ، كما يشاهد من بعض الجهلة . وقال الثعالبيّ : إنه إشارة إلى ما فى تقدم ولادتهن من اليمن (ومن يمن المرأة تبكيرها بأنثى) .

قال الشهاب : والضمير فى (يُزَوِّجُهُمْ) للأولاد ، وما بعده حال منه ، أو مفعول ثان إن ضمّن معنى التصيير. يعنى يجعل أولاد من يشاء ذكورا وإناثا مزدوجين. كما يفرد بعضهم بالذكور وبعضهم بالإناث .. ويجعل بعضهم لا أولاد له أصلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ، إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ)

«وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا» أى إلهاما وقذفا فى القلب منه، بلا واسطة « أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ » أى يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه، كما كلم موسى عليه السلام «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» أى من ملائكته كجبريل «فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ» أى فيوحى ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه، ما يشاء إيحاءه، من أمر ونهى وغير ذلك، على سبيل

الإلقاء والنفث فى الروع والإلهام ، أو الهتاف أو المنام « إِنَّهُ عَلِيٌّ » أى من أن يواجه ويخاطب . بل يفنى ويتلاشى من يواجهه ، لعلوّه من أن يبقى معه غيره ، أو يحتمل شىء حضوره . قاله القاشانىّ .

وقال المهايمىّ : أى لا يبلغ البشر حد مكالمته شفاها ، ولا يحتمل سماع كلامه مع رؤيته . انتهى . « حَكِيمٌ » أى يدبر بالحكمة وجوه التكليم ، ليظهر علمه فى تفصيل المظاهر ، ويكمل به عباده ، ويهتدوا إليه ويعرفوه . وقال المهايمىّ : أى حكيم فى تبليغ كلامه العلىّ إلى البشر الضعيف .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدلت بالآية ، عائشة رضى الله عنها ، على أن النبىّ ﷺ لم ير ربه . واستدل مالك بقوله (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) على أن من حلف لا يكلم زيدا ، فأرسل إليه رسولا أو كتابا ، أنه يحنث . لأنه تعالى استثناه من الكلام ، فدل على أنه منه . انتهى . وفيه بعد . إذ لا يقال لمن ألهمه الله ، إنه كلمه إلا مجازا . فلا يكون الاستثناء متصلا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[٥٣] (صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ)

« وَكَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الإيحاء على الطرق الثلاثة « أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا » أى وحيا من أمرنا . وسمّاه روحا لأنه تحيا به القلوب الميتة . قال الشهاب : فهو استعارة أو مجاز مرسل ، لما فيه من الهداية والعلم الذى هو كالحياة . وقيل : هو جبريل .

و (أَوْحَيْنَآ) مضمن معنى (أَرْسَلْنَا) . والمعنى : أرسلناه إليك بالوحى « مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ » أى الروح أو الكتاب أو الإيمان « نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا » أى بالتوفيق للقبول والنظر فيه « وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » أى خلقا وملكا « أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ » أى فى الآخرة . فيقضى بينهم بالعدل . إذ لا حاكم سواه ، فيجازى كلا بما يستحقه من ثواب أو عقاب . نسأله تعالى أن يحسن لنا المآب . إنه الكريم الوهاب .